الحسين فكرة سامية

الكلمة السامية التي القاها الدكتور ابراهيم سلامه استاذ الادب العربي بجامعة فؤاد الاول في القاهرة وفي دار المعلمين العالية ببغداد صبيحة العاشر من المحرم ١٣٦٤ هـ في الصحن الكاظمي وقد هيمن فيها على مشاعر الجماهير حتى استحالوا اسماعا .

* * *

ياروح علي ، يا روح ابن ابي طالب ، ياروح الامام رفرفي فوق رؤوسنا في حنان وعطف فانما نقلب بين أيدينا أعز الاماني ، ومستودع السر ، وقرارة النفس ، ومتعة الحياة .

يا روح علي ، يا روح الامام رفرفي فوق رؤوسنا بحفيف بليل من الفصاحة العلوية ، ونسيم رقراق من الفيض الالهي فانما نرتي ريحانة النبي ، وقرة عينه وغصنه الرطيب الذي نبت في حجره ، وسقاه فيضاً وحناناً من عطفه ورعايته ؛ يا روح علي ، يا روح الامام اسكبي فوق رؤوسنا سيباً من سيبك الفياض الذي صوره الحق فكان صيباً فيه ظلمات ورعد وبرق على الطغاة والجبابرة ، وكان برداً وسلاما على نفوس تعرف الحق وتتبعه ، والحق احق أن يتبع .

فمن يرثي الحسين غير أبي الحسين ، ومن يرثي من عز عليه ان يتوسد التراب غير ابي تراب ، ومن يرثي الدنيا بأسرها ، سوى من طلق الدنيا بأسرها ، ايثاراً للحق وايثاراً للآخرة والآخرة خير وابقى ، بل من يرثي من امتنع عليه الصديق والنصير غير إله هو نعم المولى ونعم النصير ؟ !

يايوم علي طلعت بلاشمس ، ويايوم الحسين بزغت بلاضياء ، فلا كنت ولا كانت شمسك ، ولا كنت ولا كان ضياؤك قبضة من المسلمين لما يدخل الايمان في قلوبهم ؛ ولما تتشرب بعد خلايا نفوسهم فيض الايمان ، قتلوه قائماً يصلي في المحراب ، قتلوا نفساً تقول ربي الله ، إغمدوا سيف الباطل في صدر من اسلمهم سيف الحق يحطمون به هياكل الزور والبهتان .

حاولوا انتزاع العلم من يد حامل العلم بعد ما بردت وجمدت وكانت قبل قابضة عليه تقطع أعناقهم ، وتجف اكبادهم دون الوصول اليه واخيراً لم يسلم العلم إلا بعد ان علم ان سيكفن فيه ، ولم يسلم الروح إلا في ساحة الجهاد بين يدي مطلبه ، ومطلبه الله والحق ، وعز عليه بين الناس فليتمم به بين يدي الله .

ادخلوا السيف في غمده وكان مصلتاً ، وعلى رقابهم بعد رقاب المشركين ، فقد حارب الشرك ثم حارب الضلال والمسافة بينهما قصيرة ، فقد أسلم من اسلم منهم فرقا ، وازدرد العقيدة ازدراداً من غير أن يستسيغها .

طروا العلم بأيديهم الأثيمة ، وكانوا في حاجة اليه لاعلاء كلمة الله ، وظنوا أنهم طووه في سجل الابد ولكنهم ماعتموا ان فهموا أنهم طووا مجدهم بأيديهم وأدرجوا أماني الامة الاسلامية ورجاءها في الوحدة فبقي الدين دعوة صاحب العلم واحتفظوا بعلمهم لانفسهم أحمر قانياً لا نجم فيه ولا هلال فذلوا وطردوا وذاقوا وبال أمرهم فبعداً للقوم الظالمين ، خفقوا دعوة الدين بأيديهم فثبت يدهم كما ثبت يد آبائهم من قبل ووضعوا حبل المسد في جيد الامة العربية الاسلامية وشدوها الى هوة سحيقة تردت فيها وحاولت القومة منها فعز عليها النهوض ولا تزال تتعثر في إثم الجريمة جريمة التفرق وتمزيق الوحدة فاحصى الله الظالمين عددا ومزقهم بددا فاصبحوا احاديث [فتلك بيوتهم خاوية] [واذا اردنا ان نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا] وقد آثرت أن أقرأ الآية بقراءة أمرنا بدل امرنا لانها بموضوعنا أملك نعم حقت الكلمة لاعلى الآثمين وحدهم بل على الامة الاسلامية التي تمزقت بعد اشلاء وفرقا واحزابا وبددا (كل حزب بما لديهم فرحون) كوة من فيح جهنم فتحت واستدارت واتسعت خروقا وابوابا يؤرث ضرامها ولا تخبو نارها تلفح الوجوه وتشوهها حتى اصبح المسلمون فرقا كل فرقة تطلب النجاة لنفسها وتتقي بشواظ اللهب في وجوه غيرها ولا كلمة تجمعهم ولا رأي يربطهم ولا أمن يشملهم ولا طمأنينة يستقرون عندها .

أسلم الامام الروح وأسلم الامر لبنيه فلم يكن نصيبهم باوفر حظاً من نصيبه ، فقد رجع كثير من القوم الى جاهلية ممقوتة وبعد أن كانوا أشداء على الكفار رحماء بينهم أصبحوا اقوياء على انفسهم وبأسهم بينهم .

شهد الحسين مصرع أبيه فرأى هوى مطاعا ، وشحاً متبعاً واعجاب كل ذي رأي برأيه ، رأى استطالة على حرم المسلمين وقد علمه جده أن كل مسلم حرام دمه وماله وعرضه ، أثر ذلك في نفسه تأثيراً حزها وأرمضها ، ثم هاضه الى ما به أن يجد دم أبيه قد اهدر ، وان الذين ولغوا في الدم غسلوا أيديهم منه كما يغسل العابد المتبتل يديه بماء الوضوء ومدوها الى الناس يطلبون الاستسلام والرضى فكفروا عن سيئات اجترحوها بسيئات اخرى إرتكبوها كما يتصدق اللص الفاجر بالمال المغصوب .

عزم الحسين ، لا على المطالبة بالثار ، بل على إحقاق الحق ورد المسلمين الى حضيرة الدين أو رد من بيدهم الامر الى جماعة المسلمين .

رأى ظلماً ، يقرر ، وعدلا ينكر ، وعربا في قصور الروم وروما في قصور العرب ، رأي مجالس الامراء يجري فيها الشراب ، وكانت مجالس الخلفاء تجري بالنصيحة والموعظة الحسنة ، رأى تكالباً على الدنيا واستخفافا بالذمة والامانة واستحقاقا للنقمة والعدالة ، رأي ذمماً تشترى وأعراضاً تباع ودينا يعرض بأنجس الاثمان ودنيا يتطاول فيها المتطاولون ويتكالب عليها المتكالبون .

جور بالنصح فلم يسمع ، وجار بالدعوة فوجد الآذان قد وقرت ، والقلوب قد وان عليها حجاب كثيف من الغفلة وعدم المبالاة ، عميت الابصار ، وعميت القلوب التي في الصدور ، الظلم صارخ ، والعدل صارخ ، والظلم مسموع له ، والعدل محسروف عنه .

تردد أي الاساليب يسلك في الكلام ، وأي الخطط يختط في الفعل ، وجد أنه لابد من صرخة مدوية ولكنه كان يعلم تمام العلم ان الصرخة ستغري به ، وما ذا يهم داعي الحق ان يتقدم الى الحق بنفسه اذا تقدم غيره بسيفه ، وهنا نرى شجاعة الحسين ، وايثار الحسين ، وعقيدة الحسين فقدم والكل ينظر مصرعه تحت قدميه ، ولكن الدفعة التي اندفع بها كانت أعز عليه من حياته ومن نفسه ، ولكن الدعوة التي يدعو اليها أعز عليه من حياته ومن نفسه ، هنا تقابلت الحياة مع الحياة وتعارضت الحياة مع الحياة ، واذن هذا موقف يستوي فيه الموت والحياة بل الحياة التي يحياها الأبي في الظلم موت بطيء والموت السريع الذي يعانيه الأبي حياة العزة والأنفة والخلود الحياة في الذل رضى بالموت الذليل ، والموت في سبيل الحياة الشريفة يمهد لها ، والدم الذي يسفك في سبيل حياة جديدة حرة يرسم خطوطها في جريانه وسيلانه . إذن فلا بد من العزمة الصادقة والايثار الصادق الذي يموت فيه صاحبه ليضمن الحياة لمن وراءه من الاجيال القادمة .

لذلك طلب الحسين الحياة في الشهادة ، وسجل بموته الخلود لذكراه كما سجل الفناء على الظلم وعلى الظالمين .

لحقهم عار اخذته وحيداً فريداً ليس أمامه الا ولده يدفعون عن ابيهم بلمحة من الحب والمفاداة وليس وراءه الا نساء ضاعت في معاملتهن نخوة العرب في التعرض لهن ، ولا يملكن إلا مناديل يجففن بها المآقي ، وإلا دماء زكية تصعد في جفونهن حسرات وعبرات ، واخيراً يسجل التاريخ ان الحسين وبنيه نالوا من اعدائهم مغلوبين ، اكثر مما نال منهم اعداؤهم غالبين . وان قطرات الدم هدمت ما شيدته ظباة السيوف ، ويريد الله ان يكون في هذه القطرات من الحيوية ما جعلها تسبح بالثورة في جميع اطراف المملكة الاسلامية ، أقسم المسلمون امامها جهد ايمانهم ان يلطخوا بها وجه الظلم حتى يحمر لامن النعيم ولا من الاحتقان ليظهر للناس بارزاً قويا في مشهد مرعب مريب ، أقض على فلول الظلمة مضاجعهم ، واغرى بهم اعداءهم ولم يكن سيف السفاح الا صوت العناية الالهية يقعقع فوق أقفية الظلم والاستبداد ، وهكذا انتصر الحسين لا بقومه ولكن بقومته ، ولا بفئته بل بيقينه ، ولا بسيفه ولكن بدمه ، ولا بخيله ورجله ، ولكن بعزمه وأمله ، ولا بغزوته ولا بقبيله ، ولكن بدافع من دينه ، لم يطل دمه ولكن أملى الله لاعدائه الذين (طغوا في البلاد فاكثروا فيها الفساد فصب عليهم ربك سوط عذاب إن ربك لبالمرصاد) .

شعلة من الشباب ذبالتها من نور الحق صب عليها الطغيان ضيلا جارفا من القوة الغاشمة يحاولون إطفاءها وما دروا انهم (يطفئون نورالله بافواههم ويأبى الله إلا ان يتم نوره) . قوة من الفتوة : قوة الدين ، وفتوة الحق ، عن يمين الحسين وعن يساره وقع الحسين بينهما فمات وبقي الدين وبقي الحق وكان فداءً لهما .

مطلب وعر ، ولكنه عزيز جاهد في سبيله بمقدار ما استشعر من إباء فانكر وما انكر ، بل سفه وما سفه ، بل تصدى حتى توثب وما توثب حتى شرد وما شرد حتى عذب ، وما عذب وحده بل عذب من معه وسقطوا واحداً واحداً ، فاستهان بحياته ومزقها جزءاً جزءاً ، واخيراً المطلب سام ، والثمن رخيص ، فوهب لمطلبه كله حياته كلها ، و كذلك الشهادة ، و كذلك الوفاء .

إذن لم يمت الحسين لانه كان شهيداً ، والشهيد حي مرزوق عند ربه ، ولم يمت الحسين لانه كان مثلا والمثل حي وباق يخبو مع الظلم ويضيء مع العدل ، ينخفض به غرور من الباطل ويرتفع به نجد من الحق ، يستره السراب اذا عميت الابصار وتسفر عنه الحقيقة اذا طلبت .

لم يمت الحسين لانه كان فكرة ، ومن طبع الفكرة السمو فلا ينالها احد وانما ينال الناس صاحبها ، وتسمو الفكرة بعد موت صاحبها فتنتقل من روحه الى روح امته ، وروح الفرد وروح الامة من أمر ربي باقية في بقائه خالدة في خلوده لم يمت الحسين لانه ما كان يطلب ملكا ، وما خرج إذ خرج ليبني قصراً ، أو ليقتني مالا وانما خرج بعقيدته سر أبيه ووديعة جده ، وقبل ان ينالوه بسيوفهم تشهد وفي تشهده أسلم الوديعة الى ربها .

إذن كان الحسين شهيداً ومثلا وفكرة وعقيدة والتراث الذي خلفه من نصيب المسلمين جميعاً ومن واجب المسلمين جميعاً المحافظة على هذا التراث وأخص ما فيه المثالية والتضحية .

ان الامم لا تحتفظ بالوقايع بل تحتفظ بالافكار وان التاريخ يعيد نفسه حقيقة ولكن لتلتزم منه الامم موضع العبرة والموعظة فيه والا فهناك في كل الامم تواريخ دامية لو اعادتها بنفسها لكان

انتحاراً متكرراً لها !

أيها المسلمون لا احسب مشاركتنا لكم في هذا اليوم يؤلمنا جميعاً إلا كما قدرتموه بحسن ظنكم مشاركة من مصر في هذه العاطفة التي جرحت فجرحت المسلمين جميعاً ، ونحن نحتفل به في ديارنا ونشاركم في عواطف هذا اليوم ، ولكن مصر كانت في كل ظروفها واسعة الصدر تتقبل كل الافكار وتوازن بينها وتخرج منها بفكرة واحدة هي ضرورة العمل على وحدة الفكرة الدينية ، وحدة الفكرة القومية التي ننشدها جميعاً .

وشيخ الكاظمية العلامة الشهرستاني يعمل على هذه الفكرة باشتراكنا جميعاً في صعيد واحد وكل مانصبو اليه ان تكون هذه المجامع من مواسمنا التي نعمل فيها على جمع الشمل ورأب الصدع والرجوع الى قول الله [تعاونوا على البر والتقوى] .

تلك ايها السادة كلمة مسلمة من بلدة مسلمة عملت ولا تزال تعمل لخدمة الاسلام والمسلمين . مصر أيها السادة التي لا تنسى تاريخها بل تعتز بكل حلقة من حلقاته لا تنسى أثر الفاطميين فيها وما احدثوا من افكار وما اختطوا من خطط في سبيل الثقافة والتعليم . ولا تزال مصر المدينة للأزهر وللفاطميين تعمل بتلك الروح وتخدم بها الاسلام والمسلمين في غير تعصب لرأي ولا انحياز الى ناحية فيه بل عرف الأزهر في جميع عصوره وعرفت مصر معه بانها تتقبل كل الآراء وتخدم كل وجهات النظر خدمة علمية تستهدي في تحقيق أهدافها بكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وعلى آله الطيبين الطاهرين ـ ولن يضل المسلمون ما تمسكوا بها وانما يضلون ويدلون بالفرقة والتباغض والتمزق والتباعد .

ايها الناس اننا في زمن يأكل الذئب فيه من الغنم القاصية . فلموا شعثكم واجمعوا شملكم ، ووحدوا وحدتكم ووجهتكم والله معكم مادمتم تجتمعون على الله وفي نصرة سبيل الله والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

***

الدكتور ابراهيم سلامه